**الأستاذ : عمر بوصبيع**

**أستاذ مساعد بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية**

**جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي.**

**عنوان المداخلة :**

# العلاقات الحضارية بين الجزائر و إفريقيا جنوب الصحراء في الفترة الاستعمارية نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

## مقـــدمـــــة:

يبدو أن العلاقات التي كانت تربط سكان شمال إفريقيا بقاطني جنوب الصحراء الكبرى كانت ضاربة في القدم، حيث أرجعها بعض المؤرخين إلى فترة فجر التاريخ. غير أن هذه العلاقات شهدت ازدهارا ووضوحا من حيث توثيقها والتأريخ لها منذ الفتح الإسلامي لمنطقة شمال إفريقيا، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة من التأسيس لروابط حضارية بين بلدان شمال إفريقيا ومن بينها المغرب الأوسط أو الجزائر ومدن وحواضر الساحل الإفريقي، وقد تمثلت تلك الروابط في علاقات اقتصادية، ثقافية، دينية، اجتماعية وسياسية. تلك العلاقات التي ظلت قوية ومتميزة من حوالي القرن السابع الميلادي إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي حين أصبحت حركة الاستعمار الأوربي أمرا واقعا يستولي على بلدان المنطقة واحدة تلو الأخرى من الشمال الإفريقي إلى منطقة الصحراء ومن ثم دول الساحل الأفريقي، لتعرف بذلك العلاقات بين بلدان شمال الصحراء الكبرى وجنوبها مظهرا سلبيا اتسم بالفتور والضعف بسبب إجراءات المستعمر الذي حاول جاهدا فك اللحمة بين ضفتي الصحراء وخاصة تلك اللحمة الثقافية التي دام من خلالها تأثير الشمال الأفريقي على دول الساحل زهاء الاثني عشر قرنا.

تحدد منطقة الساحل جغرافيا تقريبا بذلك الشريط الذي يمتد على الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى الأفريقية والتي تبدأ من البحر الأحمر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا. وهي تمثل في الحقيقة منطقة انتقال بين المناخ الصحراوي والمناخ المداري السوداني.

وتشمل منطقة غرب أفريقيا في أجزائه الإسلامية وبعض مناطق إفريقيا الوسطى، وهي شمال تشاد وشمال الكاميرون. أما منطقة الجزائر فهي ذلك الجزء من الشمال أو ما تسميه المصادر العربية ببلاد المغرب الأوسط[1] .

أما بالنسبة للفترة التاريخية المراد تسليط الضوء عليها في هذه المداخلة فهي تلك التي تم تحديدها بأواخر القرن التاسع عشر و مطلع القرن العشرين الميلادي وهي مرحلة اتسمت بانتشار الاستعمار الأوربي سواء في الجزائر أو بعض أجزاء منطقة الساحل. ولذلك يمكن في هذا الصدد طرح الإشكال التالي: كيف كانت العلاقات الحضارية بين الجزائر ومنطقة الساحل الإفريقي وما هي أهم المظاهر التي تركزت عليها تلك العلاقات؟

وللإجابة عن هذا التساؤل كان لزاما علينا التطرق للنقاط التالية:

- لمحة تاريخية عن العلاقات الحضارية التي ربطت بلدان الشمال الإفريقي ودول جنوب الصحراء.

- العلاقات الحضارية بين الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي ودور إقليم توات في توطيدها.

- دور الاستعمار الأوربي في محاولة قطع العلاقات بين بلدان شمال وجنوب الصحراء الكبرى.

## 1) لمحة تاريخية عن العلاقات الحضارية التي ربطت منطقة الشمال الإفريقي بدول بممالك جنوب الصحراء

تتحدث المصادر التاريخية على أن العلاقة الوثيقة والتواصل الحضاري بين بلدان شمال وجنوب الصحراء الكبرى تعود إلى فترة فجر الإسلام. ذلك الدين الذي كان من أهم العوامل المؤثرة التي ربطت أواصر تلك العلاقات التي ازدهرت في العصر الإسلامي وامتدت إلى

1- محمد أحمد: التواصل الحضاري بين المناطق الإفريقية الواقعة شمال الصحراء الكبرى وجنوبها، مداخلة مقدمة بندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء،12-14 ماي 1998 م، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس(ليبيا)، ص161.

يومنا هذا. وتشير تلك المصادر إلى أنه منذ فتح مصر على يد عمرو بن العاص حين قاد جيوش المسلمين المنطلقة من الشام بين سنتي 18 و25هجرية[2]، بدأ زحف الإسلام نحو مناطق الشمال الإفريقي ومن ثم نحو الصحراء الكبرى. ففتحت برقة وطرابلس سنة 22 هجرية ثم غدامس والعديد من مدن فزان في جنوب ليبيا لتصل جيوش المسلمين منطقة " كوزا " التي تقع اليوم شرق جمهورية النيجر والتي تحمل اليوم نفس الاسم، وكان ذلك على يد الفاتح عقبة بن نافع الفهري. ليتوسع الوجود الإسلامي في تلك المناطق ويظهر على شكل ممالك إسلامية بداية من القرن 12 م فتأسست مملكة كينام (kanem)، ومن جراء ذلك التـأثر الذي ظهر على السكان المحليين في دول جنوب الصحراء بفعل مخالطتهم للمسلمين ظهرت على طول نهري السنيغال والنيجر وعلى ضفاف بحيرة تشاد ممالك كل من غانا (Ghana)، مالي (Mali)، قاو (Ghao)، وذلك بين القرنين 12و13 م، وكذلك مملكة كانيم برنو (Kanem Bernou) بين القرنين 12و19 م[3].

لاشك أن الترابط بين ضفتي الصحراء يعود في حقيقة الأمر إلى ما قبل ظهور الإسلام ولكن هذه الصلة ازدادت متانة مع انتشار الإسلام في هذه المناطق. ومن هنا يظهر لنا مدى انعكاس الأحداث بين الشمال الإفريقي وبلدان الساحل حيث أنه كلما ظهر حدث في الشمال إلا وكانت له ارتدادات في دول جنوب الصحراء[4].

ويشار إلى أن هذه العوامل وغيرها ساهمت مساهمة فعلية في انتشار الثقافة الإسلامية في الصحراء الكبرى ومن ثم منطقة الساحل، وساعد على ذلك أيضا إرسال العلماء والقراء إلى تلك المناطق حديثة العهد بالإسلام لتعليم القرآن الكريم وشرائع الإسلام، وبدأ ذلك على يد الفاتحين الأوائل ليتعزز ذلك النشاط في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي أرسل مع عامله على بلاد المغرب إسماعيل بن عبيد الله عشرة من الفقهاء ليساعدوه في نشر الإسلام

---

[2] أحمد بوعتروس، الحركات الإصلاحية في افريقيا جنوب الصحراء ابان القرن الثالث عشر الهجري- التاسع عشر الميلادي، وزارة الثقافة، الجزائر، 2009، ص71.

[3] Abdul Aziz Jollah : Les politiques des Etats d'Afrique noire vis-à-vis du monde arabe : aperçu général, Les relations historique et socioculturelles entre l'Afrique et le monde arabe de 1935 à nos jours (Document de travail et compte rendu de débat du colloque tenu à Paris du 25 au 27 juillet 1979), Unesco, Paris, 1984, p12.

[4] محمد أحمد، المرجع السابق، ص163.

وترسيخه في نفوس السكان المحليين[5]. كما ازدهر ذلك التواصل الديني والثقافي في عهد الأغالبة والمرابطين والحفصيين والمرينيين وبني عبد الواد وغيرها من الدول التي تعاقبت على الشمال الأفريقي. ولذلك ظهرت في مناطق الصحراء وجنوبها مدنا وحواضر عرفت كمراكز للثقافة الإسلامية مثل: تمبوكتو، جني، كوكو، تكدا، إنصمن، كانو، كاتيسينا، شينقيط، أروان، أزواغ وصوكوتو وغيرها، تلك المراكز التي كانت على صلة وثيقة بالمراكز الثقافية في الشمال الإفريقي ومصر والحجاز[6].

أما بالنسبة للعلاقات التجارية بين مختلف أقطار المنطقة المعنية فهي ثابتة في جميع المصادر التاريخية خاصة العربية منها فكانت دول الساحل تصدر إلى الشمال عدة منتجات أهمها الذهب الذي اشتهرت بتوفره فيها، والذي كان مصدره تحديدا شمال السنيغال ومنطقة الأشونتي (les Achanti) وهي التي كانت في القديم تمول الإمبراطورية الرومانية بهذه المادة وكذا مناطق الشرق القديم وكذلك العالم العربي إلى غاية اكتشاف القارة الأمريكية. أما العاج والصمغ والعبيد أيضا فكانت ضمن المواد المصدرة من مناطق دول الساحل[7]، إضافة إلى أن منطقة الساحل الرعوية كانت تصدر إلى الشمال والجنوب مختلف أنواع المواشي والجلود والجبن واللحوم المجففة التي اشتهرت بها تلك المنطقة في القديم[8]. وفي المقابل كانت تلك البلدان تستورد الأدوية، العطور، التمر، الملح، المنسوجات، الجياد، النحاس، الحديد في شكل قضبان، الأسلحة وكذلك بعض المواد المصنوعة والكتب[9]. وكل ذلك كان يتم عن طريق تلك الطرق الشهيرة والعابرة للصحراء الكبرى والتي تصل بين شمال القارة وجنوبها في مناطق إفريقيا الغربية وجزء من إفريقيا الوسطى[10].

كما تجدر الإشارة إلى أنه من الناحية الاجتماعية كانت العلاقات متينة بين سكان الشمال الإفريقي ومجتمعات دول الساحل، إلى درجة أنه توجد بجميع مدن الساحل ومنطقة غرب إفريقيا وشمال تشاد مئات من العائلات الكبيرة والمعروفة والتي يعود أصلها إلى ليبيا،

---

[5] أحمد بوعتروس، المرجع السابق، ص ص 72-73.
[6] محمد أحمد، المرجع السابق، ص164.
[7] Abdul Aziz Jollah, Op.cit, p14.
[8] محمد أحمد، المرجع السابق، ص164.
[9] Abdul Aziz Jollah, Loc.cit.
[10] محمد أحمد، المرجع السابق ، ص166.

تونس، والجزائر أو المغرب الأقصى. وتنحدر هذه العائلات من تلك الشخصيات التجارية التي كانت تقوم بمهمة المبادلات الاقتصادية بين الشمال والجنوب، وتحتفظ في حقيقة الأمر هذه العائلات بذكريات أصولها الشمالية القديمة رغم اندماجها اندماجا كليا في وسطها الحالي. وكذلك في المقابل توجد بالشمال الإفريقي العديد من العائلات التي تنحدر أصولها القديمة من مناطق جنوب الصحراء، ولا تزال هي الأخرى تحتفظ بذكريات أصولها القديمة، وتوجد أمثلة عديدة من هذه العائلات في مدن ليبية، تونسية وجزائرية[11].

إضافة إلى ما سبق فيما يخص العلاقات الاجتماعية فإن مما لاشك فيه أن الروابط المتينة والجوار بين قبائل الشمال والجنوب قد نتج عنه نوع من التمازج البشري الذي أظهر بدوره عناصر بشرية جديدة نشأت من خلاصة ذلك الاندماج بين هذه المجتمعات، كما يشار في هذا الصدد إلى ظاهرة هجرة القبائل من منطقة لأخرى ومثال ذلك هجرة القبائل العربية التي دخلت من الشمال الإفريقي في أوائل المائة الخامسة للهجرة وهي قبائل بني هلال وبني سليم وغيرها وقد استقر كثير من هذه القبائل في مناطق تشاد، النيجر، مالي وموريتانيا[12].

أما عن العلاقات السياسية أو الدبلوماسية بين شمال الصحراء الكبرى وجنوبها فالشواهد عليها كثيرة ومتعددة عبر القرون خاصة في عهود الممالك الإسلامية الكبرى بجنوب الصحراء، ومثال ذلك العلاقات التي أسسها المرابطون بين مناطق الساحل والصحراء الكبرى والشمال الإفريقي بل وحتى مع الأندلس، وكذلك علاقات مملكة مالي بالمغرب الأقصى ومصر وخاصة في عهد السلطان منسي موسى، هذا وبالإضافة إلى علاقات مملكة السنغاي وخاصة في عهد أمير المؤمنين الحاج أسكيا محمود توري بالشمال الافريقي ومصر، وعلاقات سلاطين ممالك الكانيم وبرنو مع مصر وليبيا ومع تونس في عهد الدولة الحفصية وكذلك علاقات سلاطين أكدز مع ليبيا والجزائر ومصر.

ولابد هنا من الإشارة إلى تلك العلاقات التي لم تحظ بفرصة التدوين في صفحات المؤرخين وإنما بقيت محفوظة في ذاكرة الشعوب من خلال الروايات الشفوية المتوارثة، ونقصد بها تلك العلاقات السياسية والثقافية التي احتفظت بها قبائل الصحراء الكبرى

[11] محمد أحمد، المرجع السابق، ص166.
[12] نفسه، ص 166-167.

والساحل مع الشمال الإفريقي عبر التاريخ الإسلامي بل حتى قبل الإسلام. وفي الحقيقة تعتبر هذه الروايات الشفوية ثروة تاريخية تزخر بمعلومات ثمينة غير أنها في حقيقة الأمر مهددة بالزوال بسبب موت حملتها، وفي هذا الصدد نذكر بكلمة المفكر الإسلامي المالي الشهير المرحوم همبتي الذي قال :" إذا مات أحد الشيوخ في إفريقيا فإن ذلك يعني احتراق مكتبة كاملة !! "[13].

إن هذه العلاقات والروابط التي جمعت شمال الصحراء الكبرى وجنوبها سياسيا وثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ودينيا قد استمرت منذ القرون التي سبقت ظهور الإسلام لكنها ازدادت قوة ومتانة في العصر الإسلامي وكان ذلك عبر الطرق الشهيرة العابرة للصحراء الكبرى التي كانت تصل بين مدن القاهرة و الإسكندرية وسيرت ومصراته وطرابلس وجبال نفوسة وغدامس وغات وصفاقس وقابس وتوزر وتونس وبجاية وتاهرت وتلمسان وورکلة وفاس والرباط ومراكش وسجلماسة وتنجيلات في الشمال الإفريقي في مدن نياني وبوالانن وتمبكتو وكوكو وجني وتكدا وأكدز وإنصمن وآصودي وكانسينا وكانو ومدن بلاد الكانج وشمال تشاد وبل وغرب السودان في الصحراء الكبرى والساحل وغرب افريقيا ووسطها[14].

## 2) العلاقات الحضارية بين الجزائر وبلدان الساحل الافريقي ودور إقليم توات في توطيدها

لاشك أنه من أجل الحديث عن العلاقات الجزائرية بمنطقة جنوب الصحراء ودول الساحل، لابد من التطرق إلى تلك المناطق الجزائرية التي كانت لها صلات وثيقة من خلال موقعها الجغرافي المحاذي والقريب من بلدان الساحل، ولذلك سيكون تركيزنا في هذه الدراسة على منطقة توات التي كانت بالإضافة إلى علاقاتها الجيدة مع دول الساحل الإفريقي بحكم القرب الجغرافي، كانت همزة وصل بين مناطق الشمال الجزائري وبلدان السودان الغربي ودول الساحل[15].

---

[13] محمد أحمد: المرجع السابق، ص 167.

[14] نفسه.

[15] فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2007،ص13.

يقع إقليم توات في جنوب غرب الصحراء الجزائرية حيث يبعد عن العاصمة الجزائرية بحوال 1500 كلم، وينتشر في ربوع هذا الإقليم الصحراوي- الذي يمثل جزء من الصحراء الإفريقية الكبرى- عدد كبير من الواحات والقصور والمدن التي تظهر بشكل مجموعة من الجزر المنتشرة في البحر[16].

يقع هذا الإقليم بين دائرتي عرض 30 و26 شمالا، وبين خطي طول 4غربا و1 شرقا[17]، وهو امتداد طبيعي لمنخفض تنرروفت نحو الشمال، ويمثل اليوم الامتداد الطبيعي لمدن: أدرار، تيميمون، وعين صالح، تلك المدن التي كانت تعرف سابقا بمنطقة توات[18]، القورارة[19]، تيديكلت، وقد أطلق بعض الكتاب القدماء على المناطق الثلاثة اسم إقليم توات[20].

ونظرا لموقع الإقليم في طريق القوافل التجارية العابرة للصحراء، فقد أصبحت توات تمثل محطة هامة لهذه القوافل ومخزنا كبيرا للبضائع، وقد عمل هذا الموقع على إعطاء منطقة توات أهمية كبرى لكونها كانت تمثل محطة شبه إجبارية للراحة والتزود مما جعل منها مخزنا كبيرا للبضائع ونقطة عبور بالغة الأهمية[21].

وفي حقيقة الأمر كان إقليم توات (قورارة – توات – تيديكلت ) ولازال يمثل العمق الاستراتيجي للجزائر في إفريقيا من حيث أنه يربط من خلال موقعه في عمق الصحراء الجزائرية ،الجزائر بدول السودان الغربي وجنوب الصحراء مثل ما يربط البحر المتوسط الجزائر بأوربا. ومن خلال هذا الموقع استطاع الإقليم نقل ازدهاره الحضاري والاقتصادي وإيصاله إلى أدغال إفريقيا كما استطاع الإقليم إقامة علاقات متينة مع بلدان ومجتمعات غرب إفريقيا خاصة في فترة ازدهار الإسلام وانتشاره في شمال إفريقيا[22].

---

[16] فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص 13.

[17] عبد الله مقلاتي و رموم محفوظ: دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية، وزارة الثقافة، الجزائر، 2009، ص23.

[18] نفسه.

[19] ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر...، بيروت، 1967، ج7، ص ص 117-118.

[20] ابن بطوطة: تحت الأنظار في غرائب وعجائب الأسفار، مطبعة وادي النيل، القاهرة، 1966، ج2، ص299.

[21] فرج محمود فرج: المرجع السابق، ص 14.

[22] عبد الله مقلاتي و رموم محفوظ: المرجع السابق، ص22.

أما سكان الإقليم فهم ينحدرون من ثلاثة أصول: البربر القادمون من الشمال والذين كانوا يعيشون وسط الصحراء، والعرب الذين كان وصولهم إلى الإقليم في فترات متقطعة ومتأخرة نتيجة الخلافات والنزاعات بين القبائل العربية في الشمال، وأخيرا الزنوج الذين يعتبرون من أقدم العناصر وقد يعود وجودهم إلى أولئك الذين عمروا الإقليم منذ فترة فجر التاريخ[23].

تعتبر منطقة السودان الغربي من المناطق المهمة في القارة الإفريقية من حيث موقعها الاستراتيجي فهي حلقة وصل بين الشمال والجنوب والصحراء وبين الغابات الاستوائية، وهي في حقيقة الأمر منطقة غنية بالثروات الطبيعية والمعادن مثل الذهب والعاج، كما عرفت بانتشار تجارة الرقيق فيها ويذكر ليون الإفريقي في هذا الصدد بأن مملكة برنو وهي احدى الممالك السودانية كانت لها تجارة مع منطقة شمال إفريقيا تقوم في أغلبها على مبادلة العبيد بالجياد وذلك رغم وجود الذهب فيها بكميات كبيرة، وكان أهلها يعملون بمبدأ مقايضة الخيل بالرقيق وذلك لأعداده الوافرة لديهم لدرجة أنهم كانوا يقدمون خمسة من العبيد مقابل حصان واحد[24].

أما بخصوص العلاقات الجزائرية السودانية فهي علاقات قديمة ومتأصلة وذلك للتقارب الموجود بين الإقليمين منذ عصر الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام في ربوع جنوب الصحراء، وتوطدت العلاقات واتسمت بالعمق خاصة في عصر الزيانيين الذين أسسوا لعلاقات جيدة مع ممالك السودان الغربي وتعتبر الصحراء من العوامل القوية التي ساعدت على الاتصال السياسي والثقافي والتجاري[25].

وفي هذا الاطار تجدر الإشارة إلى منطقة الصحراء الكبرى التي يظن الكثيرون أنها كانت عائقا في سبيل التواصل بين الشمال والجنوب ولكن الحقيقة غير ذلك فبالنسبة لشعوب المنطقة الذين كانوا يستعملون الجمل في سفرهم وترحالهم وتنقلاتهم كانت الصحراء بالنسبة لهم تمثل رمزا للحرية في كل شيء : حرية التنقل، ممارسة هواية الاتصال والربط بين

---

[23] عبد الله مقلاتي ورموم محفوظ: المرجع السابق، ص29.

[24] الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983،ج2، ص134.

[25] السيد أحمد الباز: الحياة العلمية والثقافية في بلاد السودان الغربي في عهد دولتي مالي وصنغي، رسالة ماجستير، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1994، ص150.

المسافات الشاسعة المتباعدة. وفي حقيقة الأمر كانت الصحراء عقبة أمام الفرنسيين في بداية اكتشافهم لها، ولكنهم حين تفطنوا واستعملوا الجمل تمكنوا من التوغل فيها وسبر أغوارها[26].

عملت تجارة القوافل على ازدهار العلاقات التجارية حيث أن خط سير تلك التجارة كان يبدأ من تلمسان وحواضر الشمال الأخرى نحو السودان الغربي، لتمر بإقليم توات الذي تحول إلى مركز عبور تتجمع فيه القوافل الآتية من ورقلان وغرداية والأبيض سيدي الشيخ وسجلماسة لتكمل طريقها بعد ذلك إلى حواضر السودان المختلفة : ولاتة، تمبوكتو، مالي، السنيغال، النيجر، نيجيريا ...الخ، وذلك بمساعدة أدلاء توات والطوارق[27].

تعددت الوصايات السياسية على إقليم توات نظرا لمحاولات سكان شمال إفريقيا وضع أيديهم على خيراته والحاقه بدولهم، فالإقليم ظل وحتى مطلع القرن السادس الهجري يسير من طرف المشايخ المحليين للمنطقة وفي تلك الفترة امتد نفوذ دولة الموحدين إلى الإقليم، ثم أمراء دولة بني مرين بعد ذلك. هؤلاء الحكام الذين أرغموا مشايخ إقليم توات على دفع الضرائب السنوية مقابل ترك الحرية لهم في إدارة إقليمهم. وفي بداية القرن الثالث عشر الميلادي سيطر على الإقليم جماعات من عرب جنوب شبه الجزيرة العربية، واستمرت الأوضاع على ما هي عليه إلى غاية القرن السادس عشر الميلادي حين حاول ملك المغرب السلطان أحمد المنصور السيطرة على الإقليم عن طريق حملة عسكرية سيرها إليه. لم تواجه الحملة أي مقاومة، بل أحسن مشايخ المنطقة استقبال القادة العسكريين المغاربة مما دفع بملك المغرب إلى الاكتفاء بطلب دفع ضرائب سنوية من مشايخ الإقليم. وفي نهاية القرن السابع عشر انتقلت عاصمة الإقليم التواتي من مدينة تمنطيط إلى أدرار أكبر مدن مقاطعة تمي[28].

وما إن حل النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي حتى شعر حكام المغرب بأطماع الفرنسيين في الاقتراب والزحف نحو الصحراء الكبرى. وفي خضم الأحداث

---

[26] محمد أحمد، المرجع السابق، ص163.

[27] بشاري لطيفة: التجارة الخارجية للمغرب الأوسط في إمارة بني عبد الواد من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجري، رسالة ماجستير، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1994، ص150.

[28] فرج محمود فرج: المرجع السابق، ص ص 17-18.

الأخيرة التي شهدها الإقليم من قلاقل وأزمات داخلية وخارجية والتي لم يبد ملك المغرب تجاهها أي تدخل، قرر مشايخ المنطقة مد يد العون للأعمال الثورية والمجاهدين الجزائريين الذين استطاعوا مواصلة كفاحهم ضد المحتل الفرنسي من خلال مساندة أهل توات لهم وبذلك صار الإقليم يشكل نقطة خطر بالنسبة للفرنسيين. وفي سنة 1864م زار منطقة توات الألماني جيرهارد رولف وشاهد بنفسه مدى التنسيق والتعاون بين أهل الجنوب والشمال وقال في ذلك :" قبل كل شيء على الفرنسيين أن ينقلوا حدودهم إلى ناحية وادي الساورة ويستولوا على هذه الحدود الطبيعية، ولن يكون هناك أي هدوء دائم في جنوب مقاطعة وهران."[29]. وقد احتضن الإقليم التواتي العديد من قادة الثورات الشعبية الجزائرية ففي سنة 1868م استقبلت قبيلة أولاد سيدي الشيخ الشراقة التيكابت بمنطقة القورارة الزعيم بوشوشة وأتباعه من شعانبة ورقلة، هذا القائد الذي استطاع مواصلة مقاومته ما يزيد عن الأربع سنوات ضد الفرنسيين بفضل الدعم الذي تلقاه من الإقليم بالمال والرجال[30].

احتضن الإقليم أيضا ثورة الزعيم والشيخ بوعمامة الذي وصل إليه سنة 1882م ليجد المناخ الملائم لجمع المال والرجال ومواصلة كفاحه المسلح ضد فرنسا بعد أن ضيقت عليه الخناق في الشمال[31].

ومقابل هذه الأوضاع التي صار فيها الإقليم ملجأ للثوار والمجاهدين ونقطة ارتكاز لثوراتهم فكرت فرنسا في احتلال المنطقة الصحراوية بكاملها، ومما زاد في عزمها على ذلك هو تعاظم نشاط الجمعيات السنوسية المعادي للاستعمار في الصحراء الكبرى، وقد تركز هذا النشاط بصفة خاصة بمقاطعة عين صالح بمنطقة تيديكلت بالإقليم التواتي[32].

وبعد توقيع فرنسا معاهدة 5 أغسطس 1890م مع إنجلترا، صار بإمكانها الاستيلاء على الصحراء الكبرى وضمها لنفوذها، وبدأت بذلك فرنسا بخطوات عملية لاحتلال الإقليم الذي مهدت له بتكليف الضابط الفرنسي ديبورتر Déporter لإعداد تقرير شامل عن حالة إقليم

---

[29] Malte Brum : Résumé historique et géographique de l'Exploration de Gerhard Rolfs à Touate et Ibn Salah, Paris, 1866, p67.

[30] فرج محمود فرج: المرجع السابق، ص ص 18-19.

[31] Martin : Quatre siècles d'histoire, Paris, 1923, p200.

[32] Déporter : La question du Touate Sahara algérien, Alger, 1891, p50.

توات وهو ما قام به الضابط من خلال تحريره لتقرير خاص بالأوضاع الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية للمنطقة وكذلك مدى الفائدة التي يمكن أن يعود بها احتلال الإقليم على فرنسا من الناحية الاقتصادية والعسكرية[33].

وبعد الحملة العسكرية التي سيرتها فرنسا لحماية بعثاتها الجيولوجية للتنقيب والبحث عن المعادن في الصحراء الكبرى سيطرت القوات الفرنسية على منطقة عين صالح في شهر يناير سنة 1899م. وتبع ذلك احتلال منطقة القورارة في 26 يناير 1900م، واتخذوا من مدينة تيميمون وهي أكبر مدينة بالمنطقة مركزا عسكريا لعملياتهم في الصحراء. وفي شهر جويلية من نفس السنة استولوا على منطقة توات، لتفرض فرنسا الحكم العسكري على كافة منطقة الصحراء الجزائرية وهو الحكم الذي استمر سريانه إلى غاية استقلال الجزائر سنة 1962م[34].

### 3) دور الاستعمار الأوربي في محاولة قطع العلاقات بين بلدان شمال وجنوب الصحراء الكبرى:

حين وصل الاستعمار الأوربي (الفرنسي-الإيطالي –الإسباني) في القرنين التاسع عشر والعشرين عمل على فك هذه الروابط الحضارية بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى من خلال الحدود السياسية التي أنشأها لتفصل بين هذه المناطق. كما حاول غرس أفكار جديدة في أذهان الأجيال الصاعدة مفادها أن هذه المناطق لم تكن بينها علاقات قديمة بل أن الدين المنتشر في ربوع هذه البلاد، وهو الإسلام، هو دين مختلف في الشمال عنه في الجنوب أو بعبارة أخرى إسلام أبيض وإسلام أسود[35].

تعتبر الجزائر، تونس والسنيغال هي أولى البلدان التي تمكن الاحتلال الأوربي من السيطرة عليها في العصر الحديث، وقد سبقت عمليات الغزو الأوربي حملات استكشافية لتلك المناطق قادها رحالة فرنسيون وألمان وغيرهم. وبالنسبة لمن توغلوا في الصحراء الكبرى ومنطقة الساحل وغرب إفريقيا نذكر بالخصوص المستكشف الفرنسي رني كايي

[33] Déporter : Op.cit, pp 1-7.
[34] مطبوعات القصر الملكي بالرباط، 1962، ص 15.
[35] محمد أحمد: المرجع السابق، ص167.

(René Caillié) الذي كان أول أوربي زار تمبكتو في العصور الحديثة، وكان ذلك في بدايات القرن التاسع عشر، وزار كذلك مدن جانت وغات وكتب عن الطوارق كتابه " طوارق الشمال "، كما نذكر الرحالة الألماني الشهير هنري بارث (Heinrich Barth) والذي كان في خدمة إنجلترا، فزار طرابلس وسافر منها عبر الصحراء الكبرى ليصل مدينة " أكدز" شمال النيجر، كما زار بعض المدن الكبيرة شمال نيجيريا الحالية، ثم زار شمال مالي الحالية أي مناطق كوكو وتمبوكتو[36]. وقد كتب بارث في هذه الرحلة معلومات عن الصحراء وغرب إفريقيا وهي حتى اليوم تعتبر مرجعا تتميز بالدقة العلمية والصحة في أغلبها[37].

وخلال الربع الأول من القرن العشرين كان الاستعمار الفرنسي والانجليزي والإيطالي والإسباني قد استولى على مجموع المناطق في شمال الصحراء الكبرى وجنوبها. ونظرا لاشتداد المقاومة لهذا الاستعمار في مراحله الأولى، فإنه في الكثير من المناطق اضطر المستعمر إلى عقد معاهدات بينه وبين السكان الذين اضطروا للاعتراف بالسيطرة الاستعمارية بشرط احترام دينهم وتقاليدهم. وبعد سنوات من هذه المعاهدات الأولية بدأت الثورات الكبرى ضد المستعمر في كثير من مناطق الساحل والصحراء، في السنيغال والصحراء الغربية وفي المناطق التي تمثل اليوم جمهوريات بوركينافاسو ومالي والنيجر وكذلك ليبيا[38].

ولا يخفى على الجميع أنه من أهداف الاستعمار الكبرى كان إنهاء العلاقات القديمة بين هذه المناطق ووضع الحدود فيما بينها وخلق العداوة بين شعوبها. ورغم جهود الأوربيين المبذولة في قطع الصلات التاريخية بين الشمال والجنوب إلا أن روح الإسلام والجهاد ومقاومة استيلاء غير المسلمين على ديار الإسلام حال دون تحقيق أهدافهم[39].

وفي الحقيقة، سجل المؤرخون حقبة من الفتور في العلاقات بين الشمال الإفريقي ومناطق جنوب الصحراء خاصة بعد انتهاء الحركات المسلحة عقب الحرب العالمية الأولى نظرا

---

[36] محمد أحمد: المرجع السابق، ص167.
[37] نفسه:ص169.
[38] نفسه، ص168.
[39] نفسه: ص169.

لأحكام الحدود بين الشمال الإفريقي وجنوب الصحراء، بفعل تشديد المستعمر في عزل المستعمرات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والإسبانية عن بعضها البعض. وفي هذا الاطار لابد من الإشارة إلى الغزو الثقافي الفكري الأوربي الذي ظهر في تلك الفترة الحالكة السواد وذلك لمحاولة التأسيس لفكر جديد مفاده أنه ليس هناك علاقات إيجابية بين الشمال والجنوب أو بين إفريقيا البيضاء وإفريقيا السوداء، لذلك فعلى سكان إفريقيا جنوب الصحراء، حسب هذا المستعمر، أن يحذروا من الغزاة العرب الذين يهدفون للاستيلاء على بلدانهم وفرض دينهم ولغتهم عليهم [40].

ووصل بالمستعمر في اتجاه تحقيق مشاريعه أن منع سكان الجنوب من السفر إلى بلدان الشمال الإفريقي أو الشرق العربي وعلى سبيل المثال كان يمنع في النيجر حتى قراءة الجرائد العربية في فترة الخمسينات. والملاحظ أن هذه الإجراءات ازدادت شدة خاصة مع اندلاع الثورة الجزائرية ومع ظهور نظام قومي عربي في مصر[41].

وفي الختام يمكننا القول أن العلاقات بين الجزائر بشكل خاص و دول شمال إفريقيا بشكل عام من جهة وبين بلدان الساحل الإفريقي من جهة أخرى، ظلت لأكثر من عشرة قرون مزدهرة ومتواصلة يكمل كل طرف من خلالها الطرف الآخر، فكان الاقتصاد حاضرا فيها مع السياسة والثقافة والصلات الاجتماعية دون إهمال عامل الدين الذي كان جامعا للطرفين منذ السنوات الأولى التي ظهر فيها الإسلام في المنطقة. تلك العلاقات التي استطاع المستعمر الأوربي -من خلال احتلاله لبلدان شمال أفريقيا أولا ثم دول الجنوب بعد ذلك- التأثير عليها والتحكم فيها بسبب قوته العسكرية التي عمل من خلالها على القضاء على الثورات الشعبية التي ثارت في وجهه، وكذلك بفعل اعتماده على أساليب حديثة في غزوه الثقافي الذي عمل من خلاله على تغيير أفكار واعتقادات الأفارقة سواء في الشمال أو في الجنوب، وكذا اعتماده حدودا سياسية وجغرافية فرق من خلالها الدول عن بعضها البعض، لتشهد بذلك فترة حكم هذا الاستعمار فتورا وضعفا في تلك العلاقات التي ربطت بشكل وثيق بلدان ضفتي الصحراء الكبرى الإفريقية لما يفوق الألف ومائتي سنة .

[40] محمد أحمد: المرجع السابق، ص 169.
[41] نفسه.